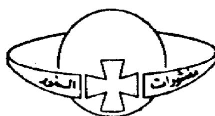
الفقر والغنى في الكتاب المقدس وعند الآباء

المطران جورج خضر

٦

« تعرّف إلى كنيستك »




منشورات
النور

المطران جورج خضر

الفقر والغنى في الكتاب المقدس وعند الآباء

منشورات النور
١٩٨٢

« تعَـرَّفـ إلى كنيسَـتك »

١ ـ آراء ارثوذكسية في الكنيسة	مجموعة من المؤلفين
٢ ـ الارثـوذكسية في الـكراسي الشرقية	جورج خضر
٣ ـ الكنيسة والدولة	خضر/ترويتسكي
٤ ـ الرؤية الارثوذكسية لله والانسان	جورج خضر
٥ ـ العبادة الفردية والعبادة الجماعية	جورج فلورفسكي
٦ ـ الفقر والغنى في الكتاب المقدس وعند الآباء	جورج خضر
٧ ـ العائلة . . . كنيسة	افدوكيموف/ بندلي
٨ ـ كن كاهني	ليف جيلله
٩ - آراء ارثوذكسية في والدة الاله	مجموعة من المؤلفين

قيد الاعداد

الاسقف في الكنيسة

المال في الكنيسة

الاسرار في الكنيسة

للمؤلف

العنوان		الناشر
انطاكية الجديدة	نفد	منشورات النور
فلسطين المستعادة	نفد	منشورات النور
حديث الاحد	نفد	منشورات النور
ثماني كلمات في الرعاية		منشورات النور
كلمات انجيلية		منشورات النور
تأملات في تجسد الكلمة	طبعة ثانية	منشورات النور
الصوم	طبعة ثانية	منشورات النور
هل الدين افيون الشعوب؟		منشورات النور
الكنيسة والعالم	(له مساهمة فيه)	منشورات النور
مدخل الى العقيدة المسيحية	(له مساهمة فيه)	منشورات النور
في سلسلة « تعرف الى كنيستك »		منشورات النور

- آراء أرثوذكسية في الكنيسة
- الرؤ ية الارثوذكسية لله والانسان
- الكنيسة والدولة
- الارثوذكسية في الكراسي الشرقية

فهرس

الفقر والغنى في الكتاب المقدس

في العهد القديم

* في العهد القديم ثلاثة خطوط تتعلق بالفقر. أولها أن الفقر عثرة. وكان هذا الخط يقوم على فكرة التعاضد بين الأفراد ليؤلفوا شعباً واحداً وان الخيرات هي للجميع. هكذا كان الفكر العبراني في البرية وكلما عاد هذا الفكر إلى اعتبار عصر التيه عصراً ذهبياً.

ولكن بعد مكوث إسرائيل في كنعان كان عليه ان يتكيَّف بمدنية زراعية فيها غزوات وأراضٍ مختلفة الخصب ورغبة التوسع.

وأخيراً كانت المدن ونشوء الملكية والمهن والملاّكون الكبار ونشوء عملة زراعيين. ومع بهاء البلاط دخلت الضرائب والتجارة والمعاهدات. ضد هذا كان ما نُسب إلى صموئيل: « فذكر صموئيل جميع كلمات الرب للشعب الذين طلبوا منه ملكاً وقال هذه سنّة الملك الذي يملك عليكم يأخذ بنيكم ويجعلهم لنفسه، لعجلته وفرسانه . . . ويتخذ بناتكم عطارات وطباخات

وخبازات، وحقولكم وكرومكم ويعطيها لخصيانه وعبيده» (١ ملوك ٨: ١٠ ـ ١٨).

إزاء هذا الاستغلال وقف الأنبياء يبكتون على الغش في التجارة (هوشع ١٢ : ٨) واغتصاب الحقول والبيوت (ميخا ٢ : ٢) والعبودية . « لا يقضون الدعوى دعوى اليتيم يُخصبون ولا يجرون حكم المساكين » (أرميا ٥ : ٢٨) . لم يكن هذا تمجيداً للطبقة الفقيرة من حيث هي . فهناك « مساكين حمقى، يقول إرميا ، يجهلون طريق الرب وحكم إلهنا » (أرميا ٥ : ٤) . الإنسان يُحكم عليه على نور مشيئة الله . ولكن الغنى ظرف للكبرياء والتفاخر . وبالتسلط على الفقير يُخرج هذا من بركات العهد وكأن الله مس بسيادته على إسرائيل : « ما بالكم تسحقون شعبي وتطحنون وجوه البائسين » (أشعياء ٣: ١٥). وكأن هناك ترادفاً بين الفقراء وشعب الله .

والألفاظ التي يستعملها الكتاب فيها معاني الاحتياج والتسول والهزالة . والأنبياء يصرخون ضد من يسبب هذا : « اسمعي هذه الكلمة يا عجال باشان التي في جبل السامرة التي تظلم الفقراء وتضغط المساكين »

(عاموس ٤ : ١). «ويل للذين يشترعون شرائع الظلم والذين يكتبون كتابة الجور ، ليحرفوا حكم المساكين ويسلبوا حق بائسي شعبي لتكون الأرامل مغنماً لهم وينهبوا اليتامى » (أشعياء١٠ :١و٢). لذلك كانت سنة لترك الديون والعبيد العبرانيين وتحريم الربا ومنع الاحتفاظ برهينة الفقير وواجب التعشير كل ثلاث سنوات للمساكين وأن تدفع أجور العمال كل يوم (أيوب ٢٤ : ٢ - ١٢) .

* كان هذا الخط الأول في الفكر العبري وكان خط آخر ورثه إسرائيل عن المدنيات المجاورة يقول أن الغنى بركة من الرب . من يخشى الله يرث أرض الأحياء وفيها فرحه ونوره وسلامه . كان يمثل هذا الفكر الحكماء . هذا ظاهر في سفر الأمثال وهنا وهناك في المزامير . دونكم مثلاً : « طوبى للرجل الذي يتقي الرب ويهوى وصاياه جداً . تكون ذريته في الأرض مقتدرة . . . يكون المال والغنى في بيته » (مز ١١١ : ١ - ٣) .

* وهناك خط ثالث في أسفار الحكمة وهو أن الحالتين فيهما إعثار والحالة الوسطى خير منهما : « لا تجعل حظي الفاقة ولا الغنى بل ارزقني من الطعام ما يكفيني لئلا أشبع فأجحد وأقول مَن الرب أو أفتقر فأسرق وأتخذ اسم إلهي بالباطل» (أمثال ٣٠ : ٨ و ٩) .

* ثم ينتقل مدلول الفقر من الاقتصاد إلى الحياة الروحية ليصبح المساكين زبانية الله، المستعدين له.

يقوم الكتاب المقدس كله على فكرة العهد . فالله اختار شعباً شاهداً له، بكراً (خر ٤ : ٢٢) ، مملكة كهان (خر ١٩ : ٥ و ٦) . وبين الله وشعبه زواج . ولكن نتوء الخطيئة جعلت الأنبياء ضد هذا الشعب ابتداء من القرن الثامن . يجب تأديب إسرائيل ولكنه لا يفنى لأن هناك بقية تبقى . هكذا يتحوَّل إسرائيل من مفهوم كمي إلى مفهوم وصفي . سيظهر إسرائيل غداً شعباً جديداً. ويحلم أرميا وحزقيال بعهد جديد بين يهوه وشعبه . ومع ذلك تظل الخيبة، والذين عادوا من السبي أو نشأوا بعده لا يزالون يتوقعون البقية . الذين يقدسون الرب يكون لهم قدساً ، كذا يرى أشعياء ، ولكنه يكون حجر صدم وصخر مختار لبني إسرائيل . . . فيعثر به كثيرون . لذلك يحاول النبي أن يؤلف حول نفسه كتلة: «أرسم الشهادة، أطبع الشريعة في تلامذتي» (اشعياء ٨ : ١٦). هؤلاء يقول عنهم: «هاءنذا والابناء الذين اعطانيهم الرب آيات ومعجزات في اسرائيل» (أشعياء ٨ : ١٨). يتكوّن حول الأنبياء اتباع يحفظون تعليمهم وينشرونه.

هذه الصفوة من ضمن الأمة اليهودية يظهر نبي في

منتصف القرن السابع ويسميها شعباً فقيراً . « في ذلك اليوم لا تخزين بشيء من أعمالك التي عاصيتني بها لأني حينئذ أنزع من بنيك شعباً فقيراً فيعتصمون باسم الرب. فبقية إسرائيل لا يصنعون الإثم ولا ينطقون بالكذب . . . » (صفنيا ٣: ١١ - ١٣). في ذلك الوقت كان الأشوريون متملكين في يهوذا والوضع الاقتصادي هزيلاً: فمن استضعفوه كان عليه أن ينحني أمام الله .

« التمسوا البر يا جميع متضعي الأرض الذين فعلوا حكمه» (صفنيا ٢ :٣). التمسوا البر. هنا يبدأ هذا الترادف بين الفقر والبر.

* ثم كانت كارثة سنة ٥٨٧ فسبي يهوذا ونشأ هناك فيما بين النهرين إسرائيل معنوي . عند العودة يتضح عند الأنبياء أن **الشعب هو الفقراء**. « هكذا قال الرب ، السماء عرشي والأرض موطىء قدمي . فأي بيت تبنون لي وأي مكان يكون مقر راحتي . كل هذه يدي صنعتها فكانت كلها يقول الرب . لكن إلى من أنظر؟ إلى البائس والمنسحق الروح والمرتعد من كلمتي »(أشعياء ٦٦ : ١و٢) .

ويبيِّن لنا المزمور الثالث والثلاثون هذا التماثل بين الفقر والدعة : « يسمع البائسون فيفرحون». يستدعي البائس زملاءه في البؤس قائلاً : « عظموا الرب معي

ولنرفع اسمه جميعاً» . البائسون في هذا المزمور هم المتقون الرب ، المتوكلون عليه . ملتمسوه قديسوه ، المنكسرو القلوب والمنسحقو الأرواح .

* أمام هؤلاء يقف إسرائيل الفاتر ، الطبقات العليا المتطلعة إلى الثقافة الوثنية ، المثقلة بالغنى . هم المتكبرون والظالمون والخطأة مبغضو الفقير ومبغضو الله . فكانت المأساة تظهر بكلمات كهذه : « انّا نغبط المتكبرين فان صانعي النفاق قد ابتنوا . جربوا الله ونجوا » (ملاخي ٣ : ١٥) . هكذا كان يتواجه الفريقان : أهل المال متجبرون ساخرون ، يهزأون من الفقير ومن الله ، والبؤساء لا يجالسون هؤلاء الكفرة ويلعنونهم . لهم اجتماعاتهم ومتكئاتهم وفيها يزدهرون . إنهم ينتظرون السلام والنور ههنا ويعترفون بخطاياهم لكن لا يفهمون لماذا يتألمون . أمام هذا الوضع عندنا رجل فريد في تاريخ النبوة ليس حوله من التلاميذ إلا قلّة عزيزة ، عنيف اللهجة حتى أقصى حدود العنف ، عزب ، بغيض لأهل قريته والكهنة والحكام ، في حياته الإخفاق يتلو الإخفاق، عنيت به إرميا. هذا يقول «اشفني يا رب فأشفى خلصني يا رب فأخلص فإنك تسبحتي» (١٧ : ١٤). لذلك يأمره الله ان يخرج الفكر النفيس لا الخسيس فيكون كفمه (١٥ : ١٩). إرميا

الفقير يرتمي في أحضان الله . إلى هذا أيضاً وصل أيوب بعد تساؤلاته.

* ويبقى هذا المفهوم في العصور اليهودية المتأخرة ، في الشتات حيث نقلت التوراة إلى اليونانية ، وفي الإسكندرية نلاحظ أيضاً هذا التأكيد . ونجده أيضاً في قمران ، حيث ابتدأت الحفريات منذ سنة ١٩٤٧ : « لقد افتديت نفس فقيرك .. أنت إلهي . لقد عضدت نفس المتواضع والفقير ضد من هو أقوى منه . . . ». في شرح حبقوق الذي عثر عليه عند هذه الشيعة صار اضطهاد من قبل كاهن جاحد على « البسطاء » سينتقم الله منه لأنه سرق أموال الفقراء . لكن إلى جانب هذا نرى أناساً يتعاطون حياة التقوى متواضعين واقتبلوا الفقر مبدأ وطريقة . لقد وصف يوسيفوس تعاطيهم الفقر الاختياري حيث قال: «ليس أحد منهم أغنى من الآخر لأن القانون عندهم أنه إذا دخل أحد الشيعة فيترك للجماعة ثروته » . وقد تكلم أحد الكتب المكتشفة ، كتاب الانضباط ، عن الشركة،فسماها (يحد) أي تحتوي معنى الاتحاد والوحدة بينهم . لقد أعاد الفقر بالروح عند هذه الشيعة الفقر بالمعنى المادي إذ لم يكن ممكناً أن يحيا المرء متواضع القلب دون فقر حسي . هذه كانت أمثولة قمران عند عتبة العهد الجديد .

في العهد الجديد

* يبتدىء العهد الجديد بفكرة الفقر :«إنه نظر إلى تواضع أمته . . . أنزل الأعزّاء عن الكراسي ورفع المتواضعين ،ملأ الجياعِ خيرات والأغنياء أرسلهم فارغين». هذا يعني أن مريم من البقية الباقية وأنها في خط المسكنة في إسرائيل .

* يبلغ الخط قمته في الإنجيل: **الفقراء ويسوع واحد.** «كنت جائعاً فأطعمتموني. . ما فعلتم بأحد إخوتي هؤلاء الصغار فبي فعلتم». المساكين يكشفون المسيح. إنه تبنّاهم كما تبنّى الألم. **فالكنيسة أصلا هي كنيسة الفقراء.** فإنهم هم الذين يبشَرون. الآيات لا تُحصى: « إنه لأسهل أن يدخل الجمل من ثقب الإبرة من أن يدخل غني ملكوت السموات» (متى ١٩ : ٢٤)، «لا تستطيعون أن تعبدوا ربين الله والمال» (لوقا ١٦ : ١٣)، « الذي زرع في الشوك هو الذي يسمع الكلمة وهمّ هذا الدهر وخداع الغنى يخنقان الكلمة فيصير بلا ثمرة» (متى ١٣ : ٢٢). . . لقد صادق الرب بعض الأغنياء

كزكا ولعازر وكان يتقبل عطاء النسوة (لـوقـا ٨ : ٢ ــ ٣). ولكن الغنى ظرف خطيئة . **إن محبة المال أصل كل الشرور** (١ تي ٦ : ١٠). إرادة الفقر نجدها عنـد لوقـا بنوع خاص: «كل واحد منكم إن لم يرفض جميع أمواله فلا يستطيع أن يكون لي تلميذاً» (١٤ : ٣٣).

* **قاعدة الرسالة ألا يأخذ الرسول شيئاً للطـريق إلا عصاه فقط لا مزوداً ولا خبزاً ولا نحاساً في مناطقهم** (مر ٦ : ٨). هذا ما كان في فلسطين ولكن بعد موت المخلص كان في الكنـائس امـوال. جمـع بولس للقديسـين في أورشليم واستأجر بيتاً في رومية (أع ٢٨ : ٣٠). وكان يسافر ويدفع أجور تنقلاته. ولكنه كان أيضاً يجوع (١ كور: ٤ : ١١) ويتحـد بالمسيح «الـذي صار فقـيراً من أجلكم ليغنيكم بفقره» (٢ كور ٨ : ٩). عراء المسيح على الصليب كان مصدراً لكل الزهد الذي عرفته المسيحية.

*مـن المشـاكل النصِّية في الإنجيل الاختـلاف في التطويبة الأولى بين لوقا ومتى . فالأول يرويها هكذا : « طوباكم أيها المساكين لأن لكم ملكوت الله » والثانـي « طوبى للمساكين بالروح فإن لهم ملكوت السموات ». كثير من العلماء يذهبون إلى أن رواية لوقا أقدم وأن متى

أراد أن يلطف التطويبة فزاد عليها « بالروح » كأنه أراد أن ييسر دخول الملكوت إلى غير المعوزين . ومنهم من قال أن رواية متى أقدم وأن لوقا أراد أن يعطيها معنى اجتماعيا ولا سيما أن لوقا يميل إلى الفقراء كثيراً . لست أعتقد أننا نستطيع الخروج بسهولة من هذه المشكلة النصِّية . ولكن هل هناك من مشكلة ؟ إذا علمنا أن النص الأول لمتى كان آرامياً وأنه كتب في البيئة العبرانية ولليهود ، لنا أن نرى أنه في خط هذا المفهوم للفقر الذي هو المسكنة واللطف والتواضع والوداعة المعروفة عند طائفة المحتاجين في إسرائيل وأن متى أراد أن يشدد أن الحاجة المادية بحد نفسها ليست منفذاً إلى السماء إن لم تُقرن بالحاجة إلى الله . من الواضح أن الذين لا يطلبون الملكوت لا ينالونه لمجرد وجودهم في الفاقة وأن ازدواجية معنى الفقر في العهد القديم والأدب العبري عامة تضطرنا أن نفهم تطويبة لوقا كأنها متضمنة للمعنى الأوضح الذي أعطاه متى . فإذا كانت رواية لوقا أقدم فلم تكن إضافة متى لحجب فكرة الفقر المادي ولكن للتأكيد على معناه الروحي وربما كان ذلك خوفاً من بعض الاتجاهات الاجتماعية المتطرفة التي أخذت تظهر في إسرائيل عندما نقل نص متى الآرامي إلى النص اليوناني .

* كيف اقتبلت الكنيسة قضية المال بعد تعليم المخلص في كنيسة أورشليم ؟ « وكان جميع المؤمنين معاً وكان كل شيء مشتركاً بينهم . وكانوا يبيعون أملاكهم وأمتعتهم ويوزعونها على الجميع على حسب حاجة كل واحد » . شيوعية كنيسة أورشليم كانت حرة أي أن كل واحد كان يساهم فيها إذا شاء . لقد غضب بطرس على حنانيا لأن بعد قوله أنه داخل في شيوع الملك المسيحي الأورشليمي احتفظ ببعض الثمن أي كذب على الله كما قال الرسول . ولكنه لم يكن مضطراً أن يتخلى عن ملكه بدليل قول الرسول له : « ألم يكن لك مدة بقائه وبعد أن بيع ألم يكن في سلطانك » (أع ٥ : ٤) مما يشير إلى أن الدخول في شيوع الملك كان أمراً حرا .

* ثم بعد ذلك تفتقر كنيسة أورشليم كثيراً و تكلف الرسول بولس أن يُعنى بأمر الجمع لها من كنائس العالم . وتنتشر المسيحية هنا وهناك في مختلف الأوساط، والرسول بولس كان يسر عندما تكون الجماعة المؤمنة في موقع ما مؤلفة من المساكين . ففي رسالته إلى أهل كورنثوس يغتبط« ألا يكون الكثيرون أقوياء أو شرفاء بل اختار الله الضعيف من العالم ليخزي القوي واختار الله الخسيس من العالم والحقير وغير الموجود ليعدم الموجود » (١ كور ٢٦ ـ ٢٨) . ولكن كان كورنيليوس من غير هذه

الطبقة ، وكانت ليديا بائعة الأرجوان ، وفي دياميس رومية مدافن لشرفاء مسيحيين.

* وكانت المسيحية أولاً في المدن وفيها ميسورون .ففي القرن الثالث وبعده في مصر والاسكندرية وإنطاكية وأفسس ورومية وغيرها وفي بيزنطية ، بعد تنصر قسطنطين، لم يبقَ بالامكان أن تكون الكنيسة المسيحية طائفة الفقراء فبرزت المشكلة من جديد وكان خط آبائي نبوي.



الفقر والغنى عند الآباء

إقليمس الإسكندري - (توفي قبل سنة ٢١٥)

في مدينة الإسكندرية ، حيث كان الترف الكثير ، كان إقليمس يخشى على الأغنياء اليأس إذا سمعوا الآية تقول: «إنه أسهل على الجمل دخول ثقب الإبرة من أن يدخل غني ملكوت السماوات »(متى ١٩: ٢٤) . كان يريد أن يبيّن أياً من الأغنياء يقصد الكتاب وكيف أن ما استحال على الناس ليس مستحيلاً عند الله ، فيأخذ بالتشجيع ولا يريد أن تحل بالأغنياء المهتدين السخرية والقدح كما كان يأبى مجاملتهم ويطلب إليهم الصراع بقيادة الكلمة .

ويورد اقليمس الإسكندري نص مرقس (١٠ : ١٧ - ٢٢) ويدل على أن الرب أراد أن ينتقل بالشاب من طور الشريعة التي كان يحافظ عليها ، الى عهد النعمة . حسناً أن يحفظ الناموس ولكن الأفضل أن يسلم إلى يسوع ، أن يبيع ما عنده ، أي أن يتجرد عن كل أهوائه . « هل المشردون على الطرقات كلها ، يقول قديسنا ، بدون أن يعلموا شيئاً عن الله وبره ، لمجرد

شقائهم وبؤسهم وفاقتهم المطلقة ، هم أسعد الناس وخير المسيحيين؟» . ثم يتابع أن من اتبع دراسة الآداب في القديم والعلوم المائتة كان يزهد بالمال ومع ذلك يتفاخر ويحتقر الإنسانية كلها . فما النفع من التجرد من الأموال إذا بقينا على البخل؟

ثم يعلِّم الفيلسوف الإسكندري أن في التمسك نفعاً أعظم لئلا تطأنا الفاقة ولنقدر أن نعين المحتاجين . ويهتم ببقاء المجتمع البشري المرتكز على الملكية : «من يطعم الفقير . . . إن صرنا أفقر من الفقير ، ونحن نعلم أن يسوع دخل على عشارين غنيين هما زكا ومتى ولم يطلب إليهما أن يتجردا عما يملكان . وإذا طلب إلينا الرب القيام بأعمال الرحمة فكيف يمكن هذا إن استغنينا عما نملك؟» .

إن الأموال بين أيدينا أدوات . « إن استعملتها بمهارة استقامت لك وإن استعملتها بغير حذق فتمسي أدوات جهلك» . المال عبد لا سيد وهو بحد نفسه ، بالتالي ، لا خير ولا شر . فلنهدم لا خيراتنا بل الأهواء التي تفسد استعمالها . فلتطهر النفس وتعرى لتسمع نداء الرب : تعال واتبعني . إن من اعتبر ثروته من عند ربه واعترف له بمؤازرة الفقراء يعلم أنه حاصل على هذه الخيرات من أجل إخوته ، أكثر مما هي لنفسه . هذا أقوى من ماله ، فلا يتعبد له ولا يحصر حياته فيه . وإذا فقد ثروته يوماً

فيقبل خرابه بقلب عارم بالفرح كما في أزهى أيامه . هذا الإنسان يغبطه الله ويسميه مسكيناً بالروح ووارثاً أكيداً لملكوت السماوات .

فالإنسان يخلص بالإيمان والرجاء والمحبة ، وحب الإخوة والمعرفة والوداعة والتواضع والحقيقة . هناك إذاً مسكنة بالروح وهي الحقيقية. كان على الشاب إذاً أن يبتعد عن محبة الغنى الحسي لاقتناء الغنى الروحي الذي كشفه الله له . وإن عجب التلاميذ « من يخلص إذاً؟» ناتج من كونهم لم يتخلصوا ، أنذاك ، من الأهواء . ما استحال على الناس ليس مستحيلا عند الله ، بسبب النضال الذي يجعلنا نؤ ثر المسيح على كل إنسان وشيء. القضية إذاً أن نفهم فهما صحيحاً الآية : «ان أسهل على الجمل دخول ثقب الإبرة» .

هذا السخاء يجذّره اقليمس في محبة الآب لنا فيقول عن الله أنه بألوهته السرية أب ولكن رقته جعلته أماً . فالأب يتأنث إذا أحب . يكلمنا عن بذل الإبن حبه لنا فيقوده تأمله ، وهو الذي راعى خلاص الأغنياء ، أن يقول : « إذا كان يجب أن نعطي إخوتنا كل شيء وأن نقيم هذا العقد مع فادينا أنطيل انحصارنا في غنى العالم ونحافظ عليه ، ذلك الشقي الغريب الفاني؟» . وكأن

فكر الإسكندري ، عندما اتجه إلى رعاية النفوس ، أراد لذوي النعم الرجاء وأكده لهم وثبت بالنهاية ملكهم . ولكن لما بلغ الرؤ ية اللاهوتية الأخيرة ، رؤ ية العطاء الأكبر ، لم يتمالك من التصريح ببذل كل شيء لنقيم على عهد الحب مع الفادي .

الآباء الكبادوكيو ن

بلغ الترف أوجه في الامبراطورية في القرن الرابع وصارت الطبقية حادة . كان الحكم في كل مدينة بيد الأغنياء والوصول إلى المجد كان يكلف صاحبه أعياداً وألعاباً وبناء الحمّامات والمسارح وغيرها . وكانت الأرستقراطية تعيش على أراضيها وسط الجنائن والقصور والحمّامات. موظفو البلديات يعملون مدة ١٧٥ يوماً في السنة للألعاب والأعياد. وهناك من يعمل الأرض تربطهم القوانين بها وهم مبعدون عن الوظائف، يدفعون للمالك حصة باهظة والجزية، وهم نصف أحرار ملتصقون بالأرض يحيون من القليل.

أما أصحاب الحِرَف فكانوا يعيشون في أكواخ وترهقهم الضرائب والمرابون يمصون دماءهم . والمتسولون كانوا كثرة وفيهم من احترف التسول. ولم تكن بين الأثرياء والمعوزين طبقة وسطى. وكان الإثراء يجعل صاحبه فوق القضاة والحكام. ووصف لنا باسيليوس الكبير ويوحنا الذهبي الفم أن هذه الطبقة

المتحكمة كانت تجرد الأرامل وتنهب الأيتام وتسرق مال الغير. بحر من الترف،جواري وطهاة، أراض، منازل، عبيد، خيل، بغال، جمال، جيوش من الخدم، أثاث مرصع بالذهب والعاج وثياب النساء يزركشها الذهب والحجارة الكريمة.

مدنية الترف هذا لم يحالفها الآباء الكبادوكيون الكبار وصرختهم إلى اليوم بعنف نبوي مذهل تدوي شهادة على تخاذلنا وزيغنا وتذكيرا لنا بأن الضعاف كرام.

* باسيليوس (توفي سنة ٣٧٩) زعيم الفكر الاجتماعي، وميزته أنه ولد غنياً وتجرد عن كل ما يملك وأسس داراً عظيمة للمؤازرة.الاجتماعية عُرفت باسمه، وكان قد انخرط في طريق الإيمان أثناء مجاعة سنة ٣٦٨. الإنسان وكيل الله على الملك. ومساعدة المحتاجين ليست متروكة للحرية ولكنها فرض كإعالة الأهل بالضبط. فحيازة ما هو أكثر من الضروري سرقة لأن للفقير حقاً عليه. «إنك عبد الله القدوس، مدبر رفقائك العبيد». عندما يشرح مثل ذلك الغني الذي فاضت غلته (لوقا ١٢ : ١٦ ـ ٢١) وقال: ماذا أفعل، كان جواب باسيليوس، أن لسان حاله يجب أن يكون: «يا جميع الذين ينقصكم الخبز تعالوا إليّ. النعم التي

أغدقها الله عليّ هي لكل الناس. تعالوا، انهلوا منها كمن سبيل عام». ثم كان هذا الأسقف العظيم واقفاً على تصرفات الأثرياء: «لا ترغب في المجاعة لنفسك ولا بالبؤس العام لمصالحك الخاصة. لا تتداول الكوارث البشرية». ويحدثنا، عن اضطرار البائسين لبيع أولادهم في سوق العبيد ليأكلوا، وعن حيرتهم بين بيع الأكبر وبيع الأصغر. والأثرياء لا يؤثر بكاء الضعاف فيهم ولا الشقاء يستدعي شفقتهم. يقول: «المجانين لا يرون العالم الحقيقي ولكن أوهام دماغهم المختلط. هكذا نفسك فريسة فكرة ثابتة ترى كل شيء، ذهباً أو فضة». «بددوا غناكم بكل الطرق».

ويصل أسقف قيصرية إلى قمة تعليمه عندما يقول في العظة السادسة ضد الغنى: « يقول البخيل : من يتضرر مني إذا حفظت ما هو لي ؟ ولكن قل لي ما هي الخيرات التي لك ؟ من أين جئت بها ؟ إنك تشبه إنساناً إذا ذهب إلى المسرح يريد أن يمنع الناس من الدخول ويرغب أن يتمتع وحده بالمشهد الذي للجميع الحق فيه . هؤلاء هم الأغنياء. الخيرات العامة التي جمعوها يقررون أنهم سادتها لأنهم أول محتليها . . .». إن التبرير الوحيد ، على ما يبدو ، عند باسيليوس للغنى والفقر أن الله أنعم على ناس بالمال لكي يصبحوا صالحين بوكالة

نزيهة ولكي ينال الفقير الجوائز العظيمة المعدة للصابرين .

« أنت الذي تغلف جميع خيراتك في طيات بخل لا يرتوي أتعتقد أنك لا تغبن أحداً إن حرمت أشقياء عديدين ؟ فمن هو البخيل يا ترى ؟ الذي لا يرتضي الضروري . من هو السارق ؟ الذي ينتزع عن كل واحد خيره . أفلست أنت بخيلاً ؟ أولست سارقاً؟ الخيرات التي اؤتمنت عليها قيماً استوليت عليها . من يجرد الإنسان من ثيابه اسمه ناهب. فمن لا يغطي عراء الصعلوك وهو على ذلك قادر هل يستحق إسماً آخر؟» .

في العظة السابعة ضد الأغنياء ، ان الصلاة والصوم والحزن بسبب الخطيئة دون البذل لا تُدخل المرء إلى ملكوت السماوات ، بسبب الكلمة انه لأسهل على الجمل دخول ثقب الإبرة . باسيليوس يجعل الثراء سبب الحروب والقتل والقرصنة والوشاية والكذب والتزوير والخبث والفسق عند الكثيرين .

باسيليوس ضد الربا الذي يخنق الفقير ولا يريد الفقير أن يستدين بل أن يستعمل ما له لمحاربة الفقر .

* **غريغوريوس اللاهوتي** (توفي سنة ٣٩٠)، الذي صار أسقف القسطنطينية ، كان لطيفاً ، شاعراً أكثر مما

هو راع . له عظة يبدأها هكذا: « يا إخوتي ورفقاء شقائي ، حيث أننا جميعاً فقراء . فنحن جائعون إلى النعمة الإلهية وكل ما بدا تفوقاً لا يشكل سوى معايير صغيرة جداً غير قادرة أن تستر هذه الحقيقة. فدعوكم تتعلموا محبة الفقراء ». يقول كباسيليوس بنظرية الوكالة ويذهب أيضاً إلى فكرة المساواة الأولى بين الناس حجبتها الانقسامات فيما بعد: « قفوا ليس عند قانون الأقوياء بل الخالق». «أنا لست متأكداً، يقول، أن الفرق بين غني وفقير آت من الله». وما يدعم البذل عند المعلّم النزينزي أننا نتخلق بأخلاق الله لأن الله معطي الخيرات.

*غريغوريوس النيصصي (توفي سنة ٣٩٤)، أخو باسيليوس. يتأسس تعليمه في هذا الباب على فكرة وحدة العالم والبشر أية كانت الظواهر. فإقصاء الفقير هو تمزيق لوحدة هذا الوجود ورفض للإله الواحد.

« لا تحتقروا الفقراء المطروحين على الأرض . . . اسألوا من هم فتكتشفوا عظمتهم . لقد اتخذوا وجه مخلصنا. فأعطاهم الرب برأفته وجهه حتى يخجل القساة أعداء الفقراء إذا رأوه . الفقراء مدبرو رجائنا ، حراس الملكوت». ولكنه يوضح فكرة المساواة الأصلية التي لمسناها عند سميه النزينزي بقوله: « كل شيء لله أبينا

الواحد . ونحن جميعا إخوة في عائلة واحدة وكان ينبغي أن نرث حصة في الميراث فلا يحرم الباقون منه بالكلية ».

يوحنا الذهبي الفم (توفي سنة ٤٠٧).

إلى جانب الكبادوكيين معلم الكنيسة جمعاء وشهيد الجرأة الإنجيلية ، يوحنا الذهبي الفم . نقلوه من إنطاكية عنوة ليكون أسقفاً على القسطنطينية فيصبح فيها استاذ الفقر الأكبر وموبخ الملوك . يجرد دار الأسقفية من كل مظاهر الترف . يحيا متقشفاً . وكان قبل ذلك في عاصمة سوريا مدافعاً عن الشعب إزاء الطغيان الامبراطوري. اسمعوه يقول:

« لقد أعطاكم الله سقفا دون المطر لا لترصعوه ذهباً في حين أن الفقير يموت جوعاً. وأعطاكم ملابس لتتستروا لا لتزركشوها بترف في حين أن المسيح العاري يموت برداً. أعطاكم منزلاً لا لتسكنوه وحدكم بل لتستقبلوا فيه الآخرين، والأرض لا لتبددوا مواردها على الجواري والراقصات والممثلين وعازفي المزمار والقيثارة ولكن لتسعفوا الجياع والعطاش. من قال احسب المسيح من

عداد عبيدك، حرره مثلهم من الجوع والعوز والسجن والعراء».

عنده أن الأغنياء والبخلاء هم لصوص على نوع ما . هم أيضاً يترصدون عند كل الطرقات المطروقة المارة لينهبوهم ويطمرون في منازلهم كما في مغاور أوحفر ثروة الغير . أساس التوزيع ليس الحنان او الشفقة مع أن كتب الآباء تصف حال المعوزين بصورة مؤثرة جداً ولكنه مبني في الحق ، في هذا أن كل شيء مشترك بيننا . فإذا كانت السماء والأرض والبحر وما فيه وأمور الروح مشتركة : المائدة المقدسة الواحدة وجسد الرب والدم الكريم وموعد الملكوت وحميم الولادة الجديدة وتطهير الخطايا والبر والتقديس والفداء والخيرات التي تتجاوز لكل وصف، فهل نكون عاجزين في أمور الغنى أن نحفظ مساواة الحق؟ ولكن لا يبدو أن القديس يوحنا يعطي حلاً رياضياً لهذه المساواة بالحقوق . إنه يطلب أن نكف عن التعلق بالمال كما يحرض على عدم جمعه. يريد ألا يتكاثر بسبب البخل الذي يغذيه . يريد «أن يصير هذا التطهر تدريجيا أولا بإعطاء الفائض عن الحاجة ».

آباء الصحـــراء

هذا ما كان في الفكر. ولكن خط الفقر صميمـي في النصرانية إلى حد أنه كان لا بد له أن يعود على مستوى المؤسسة. فشكلت طائفة الفقراء في براري مصر وفلسطين وسوريا، وفتح الطريق أنطونيوس الناشىء في عائلة غنية. وكان يعتـاش من الخبـز المجفف والماء القـراح ويعمـل ويقدم نتاج عمله لفقراء الإسكندرية. وكان هذا التجرد الرهبانـي العـظيم وهـذه الدعــوة إلى اللـــه عن طريق العراء، والفكرة التي ألهمت أنطونيوس، كانت بالضبط هذه التي سمعهـا: «إن أردت أن تكون كامـلاً فبـع ما لديك وتعال اتبعنـي». فقـير النـاصرة كان يريد طائفـة خاصة له في الصحراء إزاء مترفي الاسكندرية ولكن هنا بلغنا أوج هذا الفهـم عندمـا كان الرهبـان السـوريون يسمون أنفسهـم بشكل عادي، فقـراء. كانـت كلمـة راهب مرادفة لكلمة فقير.



الخلاصة

الخط الالهي الواحد إبتداء من صموئيل وعاموس وحزقيال وأشعياء وأرميا، ومروراً برسالة يعقوب وبكل هذا التعليم الذي وجدناه في العهد الجديد وعند الاباء، وبظهور الرهبنة، الخط الالهي هذا في الكنيسة كان دائماً خط فقر، ليس فقط ذلك الفقر المعنوي او التجرد عن محبة المال، ولكن كان خط فقر حقيقي وكان هذا الترادف دائماً بين هذه الخطوط: الفقر، التواضع، الوداعة واللطف.



العظة السادسة على الإنجيل ضد الغنى

للقديس باسيليوس الكبير

١ ـ هنالك نوعان من التجارب : فامّا ان تبلو المحن القلوب ، كما يختبر الذهب في البوتقة ، فيُظهر الصبر طبيعتها الحقة ، وأما أن تصير السعادة نفسها محكاً لسواد الناس . فان من الصعب المحافظة على صفاء النفس إبّان المصائب بمقدار ما يتعذر ألا تنبهر الأبصار بألق وبريق الظفر .

ضرب لنا اليوم الانجيل المقدس مثلا عماً في الغنى من تجارب غني يملك أموالا كثيرة ويتوقع المزيد . ولم يعاقب اللّه وهو الصالح الرحيم حقوقه مباشرة ، بل ما زال يجزل له العطاء بغية أن يجبل من الاكتفاء والقناعة إنساناً كريماً محسناً .قال الانجيلي : « رجل غني غلّت له أرضه كثيراً . ففكر في نفسه قائلاً ماذا أصنع فانه ليس لي موضع اخزن فيه غلالي . ثم قال أصنع هذا أهدم اهرائي » (لوقا ١٢ : ١٦ ـ ١٨) .

فلماذا غلت أراضي هذا الانسان غلّات وافرة ، وما كان له ان يحسن استخدام غناه ؟ ـ لكي يظهر صلاح اللّه

اللامتناهي بقوة وجلاء ، فهو يسكب آلاءه ونعمه حتى على أمثال ذلك الغني : « لأنه يطلع شمسه على الأشرار والصالحين ويمطر على الأبرار والظالمين » (متى ٥ : ٤٥) .

لكن حلم اللّه العظيم هذا يستدعي على الأثمة عقاباً يناسبه. فقد سكب غيثه على حقول زرعتها أيد بخيلة واطلع شمسه فانعشت البذار وأكثرت الثمار في أرض خصيبة : تلكم كانت هبات اللّه : أرض ثمراء وطقس معتدل ، بذار وافر، وثيران للفلاحة وكل ما من شأنه أن يسعد المزارع . أما هو ، فما كان إحسانه ؟ - مزاج عكر وكراهية وأنانية . نعم، كانت هذه طريقه في شكر المحسن إليه . نسي اننا جميعاً أبناء طبيعة واحدة ولم يدر بخلده ان عليه ان يعطي ما فاض عنه إلى الفقراء ، وتناسى ما قيل من ان :

« لا تمنع الاحسان عن أهله، لا تفارقك الرحمة والحق، اكسر للجائع خبزك» (أمثال ٣ : ٢٧ و ٣٠ أشعياء ٥٨ : ٧).

ردد الأنبياء جميعاً والحكماء كلهم هذه الأقوال على مسمعه إلا انه أصمَّ أذنيه ، وغصت إهراءاته بما احتوت من قمح لكن قلبه ، قلب الشح ،لم يرتو . وما زالت

الغلات الجديدة تتراكم فوق القديمة . وجني كل عام يزيد في غناه فوقع في حيرة من أمره ، فهو لا يريد التخلص من قمحه القديم لطمعه ، وليس بوسعه أن يخزن المؤ ونة الجديدة لغزارتها ووفرتها ، فأقضت هذه المسألة مضجعه : « ماذا عساي أفعل ؟». من منا لا يشفق على هذا الغني الذي يعاني من البؤ س ما يعاني ؟ يا لمأساة الغني وشقاء المال المجموع ، وتعاسة ألم ناتجة عن انتظار غلات جديدة ! فالأرض لا تعطيه محصولات بل تنهدات وحيرة ، ولا غلات وافرة بل هموماً ومتاعب وارتباكاً . ها هو كالفقير قد اغتمَّ وقنط. أوَليست شكواه شكوى فقير أمضه فقره؟ : «ماذا عساي أفعل ؟ أين تراني أجد ما يقوم بأودي وما يكسوني ؟». تلكم أسئلة يطرحها الغني أيضاً ! ها هي مأساته والهموم التي تنخر قلبه ! فما من شأنه أن يسعد الناس يكدر البخيل ، والخيرات التي اكتظت في مخازنه لا تعزيه لما في نفسه من هاجس الغلال المتواردة من كل صوب والتي اتخمت عنابره .من يدري، لعل شيئاً منها تناثر إلى خارج فخفف من جوع بعض المعوزين ؟

* * *

٢ ـ يبدو لي ان مرض البخيل ذو شبه وعلاقة بشر الذين يفضلون التخمة تقتلهم على ان يتركوا فضلات

موائدهم للفقراء . تفكر ، أيها الغني ، بالمحسن إليك وتذكر نفسك ، اذكر من أنت وما هي الخيرات المدفوعة إليك ومن اوكلك بها وما الأسباب التي جعلتك تفضَل على كثيرين سواك . أنت عبد للاله القدوس وخازن لأموال إخوتك في العبودية ، فلا تظن ان كل ما تنعم به إنما كان لمتعتك الخاصة . تصرَّف بما بين يديك وكأنه ملك الآخرين : فانه قد يفتنك إلى حين ، إلا انه سيتلاشى ، وتُسأل عنه حساباً دقيقاً عسيراً .

إنك تحبس كل شيء وراء أبواب موصدة وتختم على أموالك لكن القلق يمنع عنك النوم ، فتفكر في ذاتك متبعاً نصح قلبك ، ذاك المستشار الأحمق : ماذا عساي أفعل ؟ كان الجواب بسيطاً : « سأشبع الجياع وأفتح اهرائي وأدعو الفقراء . سأحذو حذو يوسف الصديق وأذيع أمر عطائي قائلا : أنتم يا من لا خبز لكم تعالوا إليّ . ان النعم التي غمرني الله بها هي للجميع : فتعالوا واغترفوا منها كما تستقون ماء الأحواض العامة » . ولكنك لا تأتي هذا الصنيع . لماذا ؟ لأنك لا تريد أن يفيد الناس من ثروتك ، وتقلق ، وقد جمعت في قلبك مجلس فجرة ، متسائلا لا كيف يتيسر لك إعطاء كل ذي حاجة حاجته ، بل كيف يتسنى لك احتكار الخيرات كلها ، بحرمانك الآخرين من كل ما قد يجنونه منها فيما لو

وصلت إليهم . يقف ببابه من يطلب استرداد نفسه ، إلا انه يصرف تفكيره إلى غذائه ! وفي ذات الليلة التي ينتهي فيها أجله ، يفكر في سني الخير المقبلة ! لقد أُعطي من الوقت متسعاً للتفكير وابداء مشاعره حتى يدان على ما يشهد به ضميره عليه .

* * *

٣ ـ وأنت أيضاً حذار ! لقد تلي علينا هذا المثل حتى نتجنب الخطأ الذي ارتكبه الغني . كن كالأرض ، أيها الانسان ، احمل مثلها ثمراً . لا تكن أقسى من الجماد ، فالأرض لا تنضج ثمارها لتتمتع هي بها ، بل لتكون لك ذات فائدة . ثم انك ستجني ما ينشره كرمك من ثمار لأن ثواب البر يرتدّ خيراً على فاعله . لقد أطعمت الجائع : ستعود اليك حسنتك مزيدة بفائدتها . كما ان البذار الملقى بالتلم يفيد منه الزارع ، كذلك الخبز المعطى للجائع سيعود عليك بالربح الوفير ، فيما بعد . لا تحصد على الأرض إلا لكي تزرع في السماء. «ازرعوا لكم بالعدل» (هوشع ١٠ : ٢) .

فيمَ القلق ؟ فيمَ الهموم وفيمَ تستعجل لتحبس كنزك في الطين والآجر ؟ « الصيت أفضل من الغنى الكثير » (أمثال ٢٢ : ١) .

إن كنت تدخر المال من أجل ما يستدعيه من اعتبار الناس ، فاعلم ان ما تلقى من شرف وجاه لهو أعظم حين تُدعى اباً لالوف الأطفال منه إذا جمعت آلاف الدنانير في خزانتك . فانه ينبغي ترك المال على كل حال ، أما ما تغنيك به أعمالك من مجد فانك تصحبه إلى اللّه ، ويدعوك أباً كل من يحيط بعرش ديان الجميع ، ويسمونك منقذاً ويسبغون عليك كل ألقاب الكرم والاحسان .

فهيا إذن ! وزِّع ثروتك بسخاء ، كن معطاء كريماً في انعامك على المعوزين ، اجعل الناس يقولون عنك أيضاً : « بدد واعطى المساكين فبرّه يدوم إلى الأبد » (مز ١١١ : ٩).

لا تستغل الشدائد فترفع أسعار بضائعك ولا تنتظر القحط حتى تفتح إهراءك . « الذي يحتكرِ الحنطة يلعنه الشعب » (أمثال ١١ : ٢٦) .

لا تجعل المجاعة أمنية لك حتى تغتني أثناءها ، ولا تتمنّ بؤساً يعمّ الناس في سبيل مصلحتك الخاصة . لا تتاجر بمصائب الناس ولا تتخذ من غضب اللّه فرصة للاثراء . لا تسمم جراح الأشقياء التي فتحتها السياط .

إنك تتأمل ما لك من ذهب ولا تلقي نظرة واحدة على

إخوتك ! أنت خبير النقود وتميز بين الصحيح منها والمزيَّف، لكن أخاك المعتاز تجهله جهلا مطبقاً ! ويبهرك بريق الذهب ، غير ان أنين التعساء يتعالى وراءك ولا يؤثر فيك . هم حيرى لأنهم لا يدرون ما يأكلون إذ لا يملكون شيئاً ، أما أنت فحيرتك ناتجة عن كثرة ما يمكنك الاختيار منه .

* * *

٤ ـ ما أكثر ما تتوسل من طرق لتنمي ثروتك ! فالخبز ذهبٌ بالنسبة إليك ، وتتجمد الخمر ذهباً ، ويتحوَّل الصوف إلى ذهب عندك أيضاً . لا تهتم بالتعامل مع البشر ، ولا تعني بأية فكرة إلا بمقدار ما تجتلبه لك من الذهب . بل حتى الذهب نفسه ، قيمته بنظرك ، في انه يولد ذهباً وقد لقح بالربى . ولات شبعاً لجشعك ، ولات حداً . كثيراً ما يترك الكبار المجال أمام الأحداث الشرهين مفتوحاً ليتخموا بالحلوى ، فافراطهم في أكلها يجعلهم يعافونها ، ولكن البخيل لا يحدث له شيء من هذا القبيل : فالشبع يزيد في نهمه . « إذا وفرت ثروتكم فلا تميلوا إليها قلوبكم » (مز ٢١ : ١١) .

أنت تحبس هذه الخيرات المائعة وتوصد دونها كل منفذ فلماذا يحل بها هنا وقد حكم عليها بالانتان ؟ إنها تحطم

السدود وتفيض من محبسها الضيق مفجرة خزائن الغني مهدمة إهراءه كجند من الغزاة الفاتحين . أتراه يفكر في ابتناء أكبر منها ؟ قد لا يترك لورثته الا هذا الخراب ، فان القضاء عليه يستلزم وقتاً أقصر مما يحتاجه تحقيق مشروع الشح واعادة بناء المخازن .

* * *

٥ ـ لاقى هذا الانسان الآخرة التي استحقها بجشعه . أما أنتم ، لو تعلمون ، فافتحوا أبواب إهرائكم كلها على مصراعيها ، تتدفق منها ثرواتكم . وكما تروي ماء النهر الأراضي الخصبة بواسطة عديد الأقنية ، كذلك أنتم وزعوا أموالكم بكل وسيلة ودعوها تسيل حتى تبلغ بيوت الفقراء : إن البئر التي تنضب غالباً ما ينبع الماء منها أغزر وأما ان اهملتموها فيأسن ماؤها ويفسد . أجل ، أن تبيتوا أموالكم تصير بلا فائدة ، أما ان تتركوها تسري ، فانها ستخصب وتفيد الجميع . لا تزدروا بثناء عارفي الجميل ولا ترتابوا قط فيما يعده لكم الديان العادل من أجر . ضعوا نصب عينيكم دائماً مثال الغني المدان : احتفظ بما يتملك من خيرات وقلق على المقبل عليه منها وارتكب من أمس خطايا الغد وهو لا يعلم ان كان سيبقى على قيد الحياة غداة يومه .

ما ان طرق بابه ذو حاجة حتى فجَّر كامن قسوتـه ، وادانـه بخلـه ولما يجمـع الحصـاد . سخـت الأرض وأوفـرت . فالغـلال غزيرة في الحقـول ، وعلى الكرمـة انتفخت العنـاقيد الكريمـة بينما أثقـل الزيتـون أغصـان شجره . لاحت على الأرض تباشير غلات رائعة ، وقد غصت بالجنى الوافر. أما هو فلم يكن كريماً ولا حسـن القبول . أضمر الضغينة للفقراء ولما يملك تلك الغلال .

ولكن ما أكثر الأخطار التي تتهـدد المزروعـات قبـل القطاف! فالبرد قمين في افسادها ، والاعصار ينتزعهـا من أيدينـا ، ووابـل المطـر يتفجـر من السحـب يخرب الحقول ، فلِمَ لا تدعو الله حتى يتمم نعمه ؟ ان تسرعك وطمعك يجعلانك غير أهل ان ترى هذه الوعود تتحقق .

* * *

٦ ـ تخاطب نفسـك سراً ، الا ان أقـوالك توزن في السماء ، ولذا كانت الأجوبة تأتيك من عل . ماذا كنت تهمس ؟ « يا نفسي ، لك الكثير من الأمـوال المخبـوءة احتياطاً لسنوات كثيرة ، فارتاحي وكلي واشربي وامرحي كل يوم » . يا للجنون ! لو كان لك نفس خنزير ، فأي بشرى تزفها إليها غير هذه ؟ إنك من الفظاظة وتجاهـل خيرات الروح بحيث تتخمها بأطعمة البدن ، أو تقدم لها

ما نهايتــه المراحيض ؟ ان تكن نفســك على شيء من الصلاح أو تكاثرت فيها المحبة والرحمة ، أو عاشــت في أنس اللّـه ، عندهـا تكن لهـا خـيرات كثـيرة ، فلتتهلل بأفراح الروح العذبة .

ولكن لما كانت أفـكارك تدانـي الأرض انحطاطـاً ، وكنت تعبـد بطنـك إلهـاً ، وكنـت بكل كيانـك جسـداً استعبدته الأهواء ، فاسمع الحكم الذي تستحقه ، وهو ليس صادراً عن إنسان بل عن اللّه ذاته : «يا جاهل، في هذه الليلة تطلب نفسك منك، فهذا الذي أعددتـه لمن يكون » ؟

إن ارتباك حماقتك لأسوأ من العذاب الأبـدي . ماذا يشغل بال ذاك الذي ستقبض نفسه كراهية ؟ « سأهـدم إهرائي وابنـي أكبر منها » . ولكن ، ماذا عساك تقرر ان ملئت هذه أيضاً؟

اتزمـع على تهديمهـا من جديد لتشييدهـــا من جديد أيضاً ؟ أي شيء أسخف من هذا العمـل : بنـاء سريع وهدم أسرع ؟ إنك ، إن أردت ، تتخذ بيت الفقير إهراء لك . « لكن اكنزوا لكم كنوزاً في السماء حيث لا يفسد سوس ولا آكلة ولا ينقب السارقون ولا يسرقون » (متى ٦ : ٢٠) .

« حسناً ، سأقتسم مالي مع الفقراء حالما أملأ إهرائي الجديد». إنك تفترض لنفسك عمراً طويلا: مهلا! فقد يفاجئك الأجل. ماذا يمنعك من اقتسام مالك الآن؟ أليس الفقير قريباً منك؟

الجائع يموت هزالا ، والعريان يرتجف برداً. وينتحر المديون ، وأنت تؤجل الاحسان إلى غد ؟ اسمع ما قال سليمان الحكيم : « لا تقل لصاحبك اذهب وعد فأعطيك في غد إذا كان الشيء عندك » (أمثال ٣ : ٢٨) .

كم تحتقر من الوصايا أنت يا من أصم البخل أذنيك ! كان ينبغي أن يكون سرورك عظيماً وابتهاجك شديداً للشرف الذي ينعم اللّه به عليك : ألا تطرق أبواب الآخرين ، بل ان يكون الآخرون هم الذين يسألونك الاحسان . غير انك تبقى متجهماً كالح الوجه ، تتحاشى رؤية إخوتك ، لئلا تجبر على التصدق عليهم بفلس ! لا تسمع منك إلاّ كلمة واحدة: «ليس لي شيء، لا أستطيع أن أعطي شيئاً، أنا فقير». فقير، نعم، أنت فقير ومجرد من كل خير، لأنك تفتقر إلى إنسانية وايمان، أنت فقير في الرجاء.

اقتسم غلاتك مع إخوتك ، اقتسمها فسوف تعفن

غداً . يا للبخل المقيت الذي يترك كل شيء للعفن بدل أن يدع المعوزين يفيدون منه !

* * *

٧ ـ يقول البخيل : « إلى من أسيء ان انا احتفظت بما أملك؟ ». ولكن ، قل لي ، ما هي الخيرات التي تملكها حقاً ؟ من أين جئت بها ؟ أنت أشبه بانسان جلس في المسرح ، يريد منع الآخرين من الدخول ويبغي التمتع وحيداً بتمثيل هو من حق الجميع . وكذلك الأغنياء : يعلنون نفسهم أسياداً على الأملاك العامة التي استولوا عليها ، لأنهم جاؤوا أولا . لو ان كلا منا لا يحتفظ إلا بما هو ضروري لسد حاجاته العادية ، ويترك ما يفيض عنه إلى المحتاجين ، لأمحي الفقر والغنى . ألم تخرج عرياناً من أحشاء أمك ؟ ألن تعود إلى الأرض عرياناً ؟ فمن أين أتاك مالك الحالي ؟ إن أجبت : « من الصدف »، كنت جاحداً ملحداً ، لأنك لا تعرف صنيع خالقك ، وان اعترفت انها من هبات اللّه ، قل لنا ما سبب غناك؟ هل هو في ظلم اللّه الذي لم يقسم الثروات بالتساوي بين الجميع ؟ لمَ كنت غنياً وكان ذاك فقيراً ؟

وأنت يا من تلف خيراتك بين طيات بخل لا يرتوي ، أتعتبر أنك لا تبخس أحداً حقه بحرمانك عديد من

المساكين؟ ما البخيل؟ هو من لا يكتفي بالضروري. ما السراق ؟ هو من يسلب مال كل إنسان. وتقول انك لست بخيلا ؟ ولست سراقاً؟ الخيرات التي دُفعت إليك لتتعهدها، استوليت عليها. إن من يجرد رجلا من ثيابه يدعى نهاباً، ومن لا يكسو عري المسكين، وهو يستطيع ذلك ، هل يستحق إسماً آخر؟

الخبز الذي تخبىء هو ملك الجائع ، وملك العريان ذاك المعطف الذي يتدلى في خزانتك، لحافي القدمين يعود الحذاء الذي يهترىء في بيتك، وللمعوز، النقود التي تدخر. وهكذا فأنت تعذب كل من كان بامكانك مساعدته من الناس.

* * *

٨ ـ قد تقول : هذه مواعظ جميلة ، لكن الذهب أجمل . فكأننا نتحدث في العفة مع خليعين . كيف أجعل نصب عينيك آلام الفقير ، فتعرف انك تجمع كنزك على أناته وعذابه ؟ سيكون ثميناً في عينيك ، يوم الدينونة، قول الرب: «تعالوا يا مباركي أبي رثوا الملك المعدّ لكم منذ إنشاء العالم. لأني جعت فأطعمتموني وعطشت فسقيتموني وكنت عرياناً فكسوتموني» (متى ٢٥ : ٣٤...).

لـكن فرائضـك سترتعـد ، ويتصبب العـرق منـك بارداً ، ويكتنفـك الظـلام حـين صدور هذا الحـكم : « ابعدوا عني يا ملاعين ، إلى النار الأبدية المعدة لابليس وملائكته ! فاني كنت جائعاً ولم تطعموني ، وكنت ظمآناً فلم تسقوني وكنت عرياناً فلم تكسوني » .

كلا ! ليس الحكم على جشعك ، هنا ، بل لرفضك مشاركة الفقراء .

ها اني قلت لك ما بدا لي مناسب مصالحـك : ان تسمعني ، فلا حاجة إلى إيضاح الخيرات التي تنتظرك ، والا فهناك وعيد كتب . لنأمل الا يتحقق على حسابك . فاختر إذن أفضل الطرق ، ولتكن أموالك ثمن خلاصك ، ولتوصلك إلى الخيرات السماوية المعدة لك ، بنعمة من دعانا جميعاً إلى ملكوته ، الذي له المجد والقدرة إلى دهر الداهرين ، آمين !



المزيد مِن أقوال الأباء

*** غريغوريوس اللاهوتي :**

« فلنزر المسيح بقدر ما نستطيع ، فلنعتنِ بالمسيح ، فلنغذّ المسيح ، فلنكسُ المسيح ، فلنلّم المسيح ، فلنكرم المسيح ليس فقط على مائدتنا . . . ولكن بما أن رب الأشياء جميعاً يريد الرحمة لا الذبيحة ، فلنعطه الرأفة بواسطة الفقراء لكي يستقبلونا في المظال الأبدية حينما نغادر هذه الأرض » (الميمر ١٤ : ٤٠) .

*** يوحنا الذهبي الفم :**

- « أتحتقر إذاً مؤ منا لم يحتقره المسيح حتى لما كان غير مؤ من ؟ وماذا أقول ، لم يحتقره ؟ إنه أحبه لدرجة الموت من أجله حتى لما كان عدوا ومشوها . انه أحبه حتى هذه الدرجة وفي حقارة هذا مقدارها وأنت الآن أتحتقره إذ صار جميلا وعجيباً وعضو المسيح وجسد الرب ؟ . . . المسيح رأسه ومائدته ورداؤه وحياته ونوره » (الميمر ٢٧ على رومية) .

- « إننـا أقـرب إلى (المسيح) من قرب الجسـد من الرأس » (١٩ على يوحنا) .

- « إننا نرفض أن نطعمـه عندمـا يكون جائعـاً وان نكسوه عندما يكون عرياناً ، ولكن نحن ، نتجاوزه حينما يسأل صدقة . بالتأكيد لو رأيتموه قديماً لكنتم تجردتم من أجلـه من جميع أموالـكم . ومـع هذا فاليوم ، إنمـا هو نفسه . هو ذاته قال : « أنا » . إنـك تسمعـه يقـول : « بـي تفعلـوا » .فأي فرق بـين أن تعطـي المسيح قديمـاً والآن . . . إنما نحتقره نفسه في الفقير ، وهكذا الجريمة شنيعة . وعندما كان بولس يلاحق أتباعه كان يلاحقه هو نفسه، لهـذا قال : «لماذا تضطهدنـي؟» (أعمال ٩ : ٤) . فلتكن طويتنا إذاً حينما نصنع الصدقة كما لو كنا نعطـي المسيح نفسه.فحينما ترى إذاً فقيراً تَذَكّر كلماته التي تؤ كد انك إنما تطعمه نفسه . وحتى لو كان من نراه ليس المسيح فمع ذلك إنما هو نفسه الذي يأخذ ويتسـول تحـت هذه المظاهر . إنك تحتج حينما تسمع ان المسيح يتسول . . . فعدم العطاء هو قساوة من طرفنا . واذا كنت لا تؤ مـن الآن بانك بإهمالك مؤ مناً في الفاقة، تهمله (أي المسيـح) نفسه ، فانك ستؤ مـن بذلك حينما يدعـوك إلى حضرتـه قائلا : « كلما فعلته بأحد إخوتـي هؤ لاء الصغـار فبـي فعلته » (متى ٢٥ : ٤٠) (٨٨ على متى) .

ـ « ماذا ينفع تزيين مائدة المسيح بأوان ذهبية إذا كان هو نفسه يموت جوعاً ؟ فاشبعه أولا حينما يكون جائعاً ، وتنظر فيما بعد في أمر تجميل مائدته بالنوافل . . . فكِّر ملياً في الأمر : هذا ما تفعله بالمسيح حينما تراه تائهاً ، متشرداً وبلا مأوى وأنت ، بدون أن تستقبله ، تزيِّن تبليطات الأسوار والأعمدة . . . لا أقول هذا لرذل هذه الزينات . يجب الاهتمام بهذا وبذاك ولكن بالآخر أولا . فلا تزين الكنائس إن كان ذلك لاهمال أخيك في الشدة . هذا الهيكل أكثر جلال من ذاك » (٥٠ على متى) .

ـ «اننا ننظر غالباً الى الرب بعدم ثقة، مع انه إنما يُخضِع نفسه لهذا الشقاء من أجلنا. فهو باختياره يقاسي الجوع ليطعمك، ويسير عرياناً باختياره لكي يعطيك رداء عدم الموت. ولكنك لا تعطي من عندياتك» (١٧ على يوحنا) .

ـ « بينما كلبك متخم ، يهلك المسيح جوعاً » (١٧ على كورنثوس الثانية) .

ـ « قد تقول في نفسك : لو طُلب إليّ أن أستقبل بولس عندي لفعلت ذلك من كل قلبي . ولكن انظر ان رب بولس يستطيع أن يقيم عندك ان أردت . انه يقول :

« ومـن قبـل صبياً مثـل هذا فاياي يقبـل » (متـى ١٨ : ٥) . فكلما كان هذا الأخ وضيعاً كلما كان ذلك غالباً بدافع المجد الباطل ، ولـكن من يستقبـل صغـيراً يستقبلـه لأجـل المسيح فقـط . فليكن لديك إذاً مأوى للمسيح . . . وأنت الذي يظهر حرارة هذا مقدارها للعناية بحُماة ثروتـك الـزمنية ، لا تكن بارداً تجـاه الأشياء الروحية » (٤٥ على الأعمال) .

- « سجِّل المسيح بـين ورثتـك واتـرك له قسماً من أمـوالك . . . ضع المسيح في سلك عبيدك ، تطلـق عبيدك ، فاطلـق المسيح من الجـوع والفاقـة والسجـن والعري » (١٨ على رومية) .

- « أنـدلِّل أعضـاء جسمنـا ولا نهتـم بأعضـاء المسيح ؟ . . . ولـكن حينما ترى المرض يحل في جسـم المسيح تتجاوزه راكضاً » (٤٤ على كورنثوس الأولى) .

- « ان الآب أسلم حتى ابنه ، وأنت لا تعطي حتى قطعة خبز لمن أسلم وذبح من أجلك . . . فأية حجـارة هي فاقدة الحس أكثر من القلـوب التي تستقـر في هذه القسـوة الشيطـانية ؟ . . . لم يكفـه انـه قاسى الموت والصليب ، بل أراد أن يصير فقيراً ومسافـراً ومتسـولا وعرياناً وملقى في السجن ومقـاسياً الاسقـام لكي يؤ ثـر

ذلك عليك على الأقل . يقول لك : لا أطلب منك شيئاً ثميناً بل خبزاً ، سقفاً ، كلمات معزية . . . تذكّر عُريي على الصليب حينما عريت من أجلك . لقد كبلت بالحديد من أجلك وأنا الآن كذلك أيضاً لأجلك . . . قاسيت الجوع من أجلك وأقاسيه أيضاً لأجلك . لقد عطشت حينما علقت على الصليب وما زلت كذلك بالفقراء . . . إنما أريد أن تطعمني لأني أحبك بحرارة . وسعادتي كامنة في أن أكون على مائدتك : أليست هذه هي عادة المحبين ؟ » (١٥ على رومية) .

ـ « هذا المذبح هو نفسه ذلك . . . هذا هو تلك العلية حيث كان (التلاميذ) آنذاك ، ثم خرجوا إلى جبل الزيتون . فلنخرج نحن أيضاً إلى أيدي الفقراء لأن هذا المكان هو جبل الزيتون ،لأن جمهرة الفقراء هي أشجار زيتون مغروسة في بيت اللّه تقطر الزيت المفيد لنا هذا الذي كانت تحمله العذارى (العاقلات) الخمس » (٨٢ على متى) .

« هل تريد أن ترد هيكله أيضاً ؟ إنما بناه اللّه نفسه ، ليس من حجارة بل من معدن ألمع من السماء ، من النفوس العاقلة . . . الهيكل الذي أحدثكم عنه مصنوع من أعضاء المسيح نفسها، ويصير جسم المسيح هيكلا لك فاحترمه . على جسد الرب تقدم الضحية . هذا المذبح

أشد هولا من الذي ينتصب في هذه الكنيسة وبالأحرى من مذبح الناموس القديم . . . لأنه جسم المسيح نفسه . إنك تحترم هذا المذبح حينما ينزل إليه جسم المسيح ولكنك تهمل وتبقى غير مبال حينما يفنى ذاك الذي هو جسم المسيح . . . وكما يستدعي الكاهن الواقف أمام المذبح الروح (القدس) هكذا أنت تستدعي الروح (القدس) لا بالكلام بل بالأفعال . لأنه ما من شيء يغذي ويضرم نار الروح مثل هذا الزيت المهراق بسخاء . . . ما هو دخان هذا المذبح وطعمه العذب ؟ الحمد والشكر . . وهذا الطعم العذب . . . يفتح قبة السماء . . . أنت في الحقيقة صامت ولكن صنيعك يتكلم : فذبيحة حمد مقدمة ، لا عجلة مذبوحة أو جلداً محرقاً ، بل نفساً روحية تقدم محرقتها . . . فحينما تنظر مؤمناً فقيراً فكر انك ترى مذبحاً . . . لأنك هكذا ستستطيع معاً ان تجعل اللّه رحيماً لك وان تنال الصالحات الموعود بها . . . » (٢٠ على كورنثوس الثانية) .

* ايرونيموس

« ان نفس المؤمن هي الهيكل الحقيقي للمسيح . زيِّنوه ، اكسوه ، قدموا فيه العطايا ، استقبلوا فيه المسيح . ماذا ينفع أن تلمع الحيطان بالحجارة الكريمة

بينما يهلك المسيح جوعـاً في شخص الفقـير؟» (الرسالـة ٥٨ : ٧).

*** المغبوط أوغسطين :**

« ففي جميع المسيحيين ، إنما علينا أن نحبه هو (أي المسيح) ، هو القائل : « كنت جوعاناً فأطعمتموني » . لم يقل : « أعطيتموهم » بل : « أعطيتموني » . بهـذا المقدار هو عظيم إحسان الرأس نحو جسمه » (الخطبـة ١٩٧) .

ـ « المسيح هو الرأس والجسم .ليس علينا أن نظن اننا غرباء عن المسيح الذي نحن أعضاؤه ، أو ان نحسـب أنفسنا كما لو كنا شيئـاً آخـر غـيره . . . لتُفهم أعضـاء المسيح وليُفهم المسيح في أعضائه وليُفهم أعضاء المسيح في المسيح لأن الرأس والأعضاء هي مسيح واحد . كان الـرأس في السماء وقـال: «لماذا تضطهدنـي؟» (أعمال ٩ : ٤). نحن معه في السماء بالرجاء وهو معنا على الأرض بالمحبة» (على المزمور ٥٤ : ٣).

ـ « إذا فكرنا في أنفسنا ، إذا تأملنا جسمه نرى بأنه إنما نحن . لأنه إن لـم نكن هو نفسه ، لا يكون النص صادقاً : « كلما فعلتم ذلك بأحد إخوتي هؤ لاء الصغار

فبي فعلتموه » (متى ٢٥ : ٤٠). وإن لم نكن هو نفسه لا يكون النص صادقاً : « شاول ، شاول ، لماذا تضطهدني ؟ » (أعمال ٩ : ٤) . إذاً نحن أيضاً هو لأننا أعضاؤه، لأننا جسمه، لأنه رأسنا، لأن المسيح المقام، إنما هو الرأس والجسم» (**الخطبة ١٣٣**).

* وجاء في الخطبة ٣٠ : ٩ من الخطب المنسوبة إلى القديس **مكاريوس المصري الكبير**: «سيقول: « كنت بلا سطح ولم تقبلوني ، كنت جوعاناً ولم تطعموني . . . » . طعامه وشرابه وكسوته ومسكنه وراحته هي إذاً في نفوسنا . هوذا هو يقرع دائماً ليدخل إلينا. فلنستقبله ، فلنقده إلى داخلنا لأنه هو لنا الطعام والحياة والشراب والحياة الأبدية . وكل نفس لا تستقبله في داخلها ولا تستريح فيه ولا تأخذ حياة جديدة فيه ، لن تنال ميراث السماوات » .

*** سمعان اللاهوتي الجديد:**

«المال وكل ما هو لك ملكك المشترك مع كل الناس كما هي الحال بالنسبة للنور وللهواء الذي نتنشق» .



تم طبع هذا الكتاب في شهر حزيران ١٩٨٢
في مطبعة النور – تلفون ٢٨٦٩٨٩
ولحساب منشورات النور
بيروت – لبنان